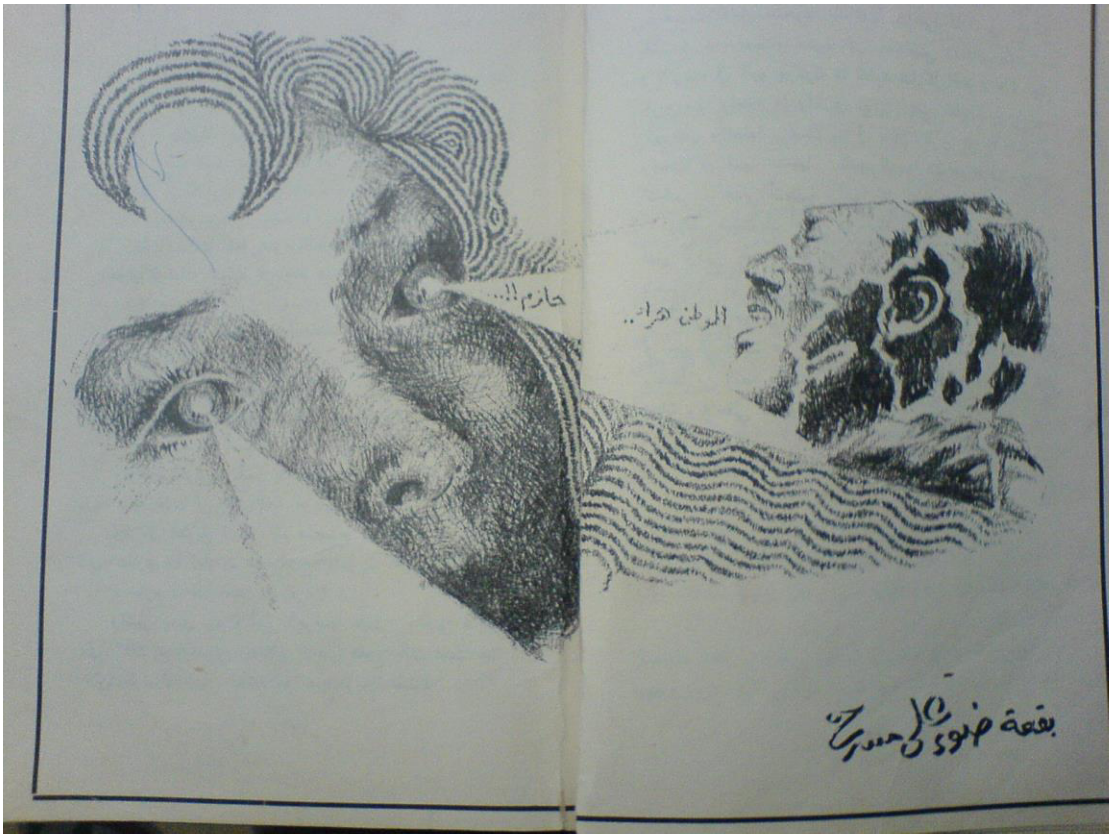
بقعة ضوء على المسرح

قصة لـ

غادة السمان

من مجموعتها

ليل الغرباء


حازم!!...
المواطن هرا..
بقعة ضوء

كانت هنالك بقعة ضوء تتحرك على الجدران ، وعلى احجار الزقاق الناتئة ، باحثة عن وجه ما باصرار عنيد ...

« حازم .. حازم أين أنت ؟ »

وكان صدى صوتي حاداً ملتاعاً ، يثير شفقتي ، ثم احتقاري !

« حازم ... يا حبيبي ! »

والبرد الرمادي تنفضه المصابيح المحتضرة ...

« حازم .. أين أنت ؟ »

والزقاق الطويل ، أتعثر بأحجاره النافرة ...

« حازم ، أين يدك ؟ »

والزقاق الطويل لم أدرِ كم سيصبح موحشاً ، إذا لم أجدك في انتظاري ، كعادتك عند الدرج العتيق .

« حازم ، غداً العيد ... اقرأ ؟ »

واشهر بيدي رسالة أبي لأعرضها عليك . ولكنني لا أجدك في ركنك ، ويغمرني احساس غامض مفجع بأنك لست هنا ، ولن تكون قط هنا . فأشد على بقايا الرسالة بقسوة ...

وفجأة ...

تستحيل حروفها مفرقعات صغيرة من مفرقعات العيد ، تنفجر داخل يدي واحدة تلو الأخرى ...

« حازم ! »

وإذا بالزقاق ، الذي كان إلى ما قبل لحظات ، مسترخياً بأهله النيام كبطن متخم كسول ، يتفجر فجأة مع تفجرات الكلمات داخل يدي ، ويستحيل دنيا من الشرور المفاجئة ، يتوهج بنيران مجهولة المصدر ، مسعورة الشرر والزعيق ...

أبواب الجيران وأهل الزقاق تفتح ، وينسكب الناس من الاسطح أيضاً ومن المداخل وعلى أنابيب المياه ، يندفعون في موكب رهيب ، موكب عجيب مريض الثورة : ليس فيه ضحك أو بكاء أو نباح أو هتاف بالضبط ، فيه هذه الاشياء كلها مختلطة بلا ضابط ، أو منطق ، أو هدف .

مئات من الغارقين في ملابس تنكرية ، عجيبة التناقض ، والمسدسات تنطلق وحدها ، وكل شيء ، أسير لعنة وباء أسود ، رهيب الهذيان شرس التدمير ..

« حازم ! »

وهم يحملونك مع مجموعة أخرى من الرفاق إلى حيث لا أدري ...

والزقاق بوتقة من النيران والفوضى والهياج تخضها يد مجهولة شريرة ..

« حازم ! »

واستحيل أرنباً صغيراً عبثاً يركض بين الجموع ، ويقرض الايدي والاقدام والرقاب ، ويسقط ، يقفز ، يتمزق ،

يركلونه ، يقفز ، وينوح عند الدرج العتيق ...

« حازم ! »

وفجأة ...

تموت الأصوات والألوان وكل شيء ..

جثة ليل عتيق تغطي ما كان زقاقاً ...

لا لون ، لا هبّة ريح ، لا بصيص ، لا ذكرى ، لا شيء .

وأنا أرنب صغير ، لا يدري لماذا يقفز ويشمشم الأرض ..

الأرض رماد !

وتحت كومة من الرماد أجدك مدفوناً حتى العنق ...

وتصحو الروائح والألوان والابعاد ، وتصحو الأيام قطيعاً من الارامل يندبن أحبابهن الشجعان في موكب دامع الاناشيد.

« حازم ... لم أدر كم أحببتك حتى فقدتك ! »

لم أسمع صوتي ، وتذكرت انني صرت أرنباً صغيراً ، فوق الرماد الذي دفنت تحته . أعدو مسعورة ملهوفة .

عيناك ، كما أعرفهما ، تمطران غموضهما الساحر المحبب .

احفر التراب حول عنقك .

احفر نفقاً ، أتسلل منه إلى صدرك . ارخي بأذني الطويلتين سوف أغفو كعادتي هنا حيث أحب ، بين ابطك وصدرك ، ولكن ، هنالك ثقب ينزف منه الدم بوحشية .

ثقب ينزف منه الدم بوحشية هنا في صدرك ...

لم أعد أرنباً .

أنا نابان يقطران دماً وصراخاً : « حازم ! حازم ! »

يغمرك الرماد تماماً .

يعود كل شيء كما كان : الزقاق الطويل ، الصمت ، الأبواب المغلقة على الناس النيام ، والبرد الرمادي تنفضه المصابيح المحتضرة .

لم يبق إلا همسة غامضة المصدر ، تخفت حتى تموت ، تهتف باسمي : مادو ...

وبقعة ضوء تتحرك ببطء في ذلك المسرح الميت الحزين ... وصرخة تمزق الهدوء الدامع من وقت إلى آخر : حازم ! حازم !

أفتح عيني وأنا ما زلت أصرخ « حازم » .

. . .

أحاول أن أخنق بقية الصرخة . أخي الواقف في الغرفة شبه المعتمة يتأملني بعينين خاليتين من أي تعبير . أمام مدفأة غاز صغيرة ، يتابع ارتداء ثيابه بسرعة وصمت ، ولكن بقايا وجه حازم الممزق — كما رأيته في ذلك الحلم المرعب — ما تزال عالقة بين أهدابي ، وهمسته « مادو » تطلق من نقطة واحدة في أعماقي آلاف الاسهم ، وفي كافة الاتجاهات تمزقني ، تفتتني .

لو خطر لأخي سليم أن يداعبني كعادته ويكشف الغطاء عني في هذا الصقيع ، ليستمتع بملحمة من شتائمي الوطنية المهداة اليه وإلى برد لندن ، لصعق ، ولرآني أنزف بمسامي كلها ولهرب مذعوراً !

لكنه لم يكشف الغطاء ، وظللت مدفونة تحته مع خمس زجاجات معبأة بالماء الذي كان ساخناً .

يحمل أخي كتبه ، وفي وجهه تعبير يقول انه تأخر ثانية على موعد الدرس ، ومع ذلك يتلكأ أمام الباب . هنالك ما يود أن يقوله :

– لم ألاحظ أن خبر خروج حازم من السجن ، ووصوله إلى هنا للالتحاق بعمله في السفارة ، قد هزك هكذا !

– ...

– لم يبد على وجهك أي تأثر حينما أخبرنا « نادر » ان حازم يقاسمه مسكنه ، ريثما يجد شقة مناسبة ...

– ...

– ولم يبدُ الاسف على وجهك حين أخبرنا نادر ان حازم اعتذر عن مرافقة الاخوان والاخوات إلى دارنا الليلة ، للاحتفال بالعيد ...

– ...

– كنت تعرفينه جيداً ، أليس كذلك ؟

– ...

ماذا سوى أن أمعن صمتاً ؟!

(أجل ! عرفته جيداً كما لم يعرفه أي انسان . يا للفجيعة كم عرفته ، حتى استعبدتني تلك الومضات المضيئة في اطلالته على الأشياء !)

واستطرد أخي يقول : ثم انني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يتصل بك ، رغم انكما تعرضتما للموت معاً أكثر من مرة على ما سمعت .

(أجل ! ان لم تكن رابطة الحب والحياة ، فمن أجل رابطة الموت . ليلتها سمعنا الصفارة . التصقنا بالجدار الرطب

في الزقاق العتيق ، والقنبلة الموقوتة بين جسدينا تنبض ، ونحن نزداد التصاقاً كي لا نسقط إلى الأرض . ونزداد اندساساً في رحم الجدار الرطب اللزج .

ومروا بنا . كان لا يصدق انهم لم يرونا . ظننتهم يهزأون يمعنون تعذيباً ولكنهم لم يرونا فعلاً !

كان لجسده تلك المرة طعم الجدار الطحلبي الرطب . وقد انصرفت بسرعة أحمل التعليمات ، وكدت أصفعه لما قبلني ، أحسست قبلته جزءاً من المهمة ، وكفرت به لثانية . وحزنت من أجلنا ، فقد حولتنا « مهمتنا الانسانية » إلى حجارة شطرنج بلا عواطف انسانية . ها قد ماتت الشهوة . وماذا بعد !)

– حازم يعرف جيداً انك هنا .. ان ذلك لا يصدق . لقد تعمد نادر ان يروي له مطولاً عن سهراته في دارنا حيث يشاركني تحضير الدروس ، وتعمد أن يحدثه عن دورك الكئيب في أمسياتنا ، ان ذلك لا يصدق !

(وأنا أيضاً لا أستطيع أن أصدق أو أفهم منذ ذلك اليوم ، حين القمت آلة الاسطوانات قطعة نقدية جديدة في ذلك المقهى العتيق في لندن . وربما للمرة العاشرة ، علا أنين المطرب « هجرت مدينتي ... هجرت شمسي ... هجرت سمائي الزرقاء ! »

تأفف بعض اللندنيين . حدّقوا في وجهي باستنكار . أخفيته تحت نظارتين سوداوين كبيرتين ، وأشحت به عن مشهد الدموع التي كانت تغافل عيون بعض الغرباء ، المحروقي البشرة ، الذين هجروا مدينتهم لسبب أو لآخر . ولمدنهم شمس وسماء زرقاء ، وليست كهذا الجحيم ...

فتح نادر الباب يومئذ ، ودخل يلهث فقلت له :
ـ أين أخي ؟ لماذا جئت وحدك يا نادر ؟
ـ خبر لا يصدق .. حازم وصل !
خشيت أن أصدق فأموت .
ـ هو هنا منذ أيام ثلاثة !
خشيت أن أصدق فأموت .
ـ كان معي منذ لحظات . سوف يقاسمني مسكني . وقد أخبرته انك موجودة هنا ، في مقهى « التوسكانا » .
لن أصدق .
ـ ولكنه اعتذر لأمر هام ، وذهب !
خشيت أن يرى نادر في وجهي انني صدقت . لذا انطلقت راكضة في الزحام . وطيلة أسبوع ، كنت اندس في الزحام هاربة ، فرحة بالمطر الذي يجعل الوجوه جميعاً تبتل كوجهي ، لأنني أيقنت من ان حازم يتجنبني ... وأنا أيضاً لا أستطيع أن أفهم الآن أي شيء !
ليلة ذهب حازم ولم يعد ، عرفت انه في السجن . وكنـا يومئذ معاً في مدينتنا .
ليلة غادرت مدينتي ، فهمت لماذا غادرت مدينتي ...
والاشهر المريرة هنا في لندن والانتظار الوحش ، كل شيء كان مفجعاً وقاسياً . لكنه أيضاً كان واضحاً ، ومنطقياً . وفي نهاية النفق كانت ما تزال نقطة من نور هي اليقين ، هي الايمان القاطع النهائي بشيء اسمه قضية !
أما الآن وحازم هنا ، وحازم يتهرب مني دون أن يقول

كلمة وتحدة . وهذه المقايضة الغامضة . الآن اختلط كل شيء وعمت الفوضى !)

وعاد أخي يقول : على أية حال ، حاولي ألا تفوتك سهرتنا الليلة . سيجلب كل منهم معه صنفاً من أطعمتنا يعده بيده ، واسطوانة ، وصورة ، وممنوع التكلم بالانكليزية ، بل بلغتنا العامية فقط . سنقضي عيدنا وكأننا في مدينتنا !

(وكان حازم يحب مدينتنا كما لم يحبها أي انسان .

وكانت أصابعه تكاد تنغرس في ذراعي ، وأنا أكاد انغرس في صدره ، والغروب يغرس حرابه في كل شارع وسطح وحقل ونحن نطل عليها من أحد المرتفعات .

كان يردد : أعبدها ! أعبدها !

– حازم .. أحس بأنني أملك العالم كله .. اني سعيدة !

– أحس بأنني جزء من العالم كله . ذلك ما يسعدني !

– أنا أملكه !

– أنا انتمي اليه ، وبذلك املكه !

– انا املكه !

– وأنا أفكر بآلاف الرجال على اكتاف آلاف المدن الأخرى ، وقد ضموا اليهم حبيباتهم كما أفعل الآن . ذلك الاحساس سوف يستعبدنا لتلك الأرض أبداً ..

– أنا أملكه !

– وأنا أحس بانتمائي إلى الملايين في ملايين المدن الأخرى . الاحاسيس المشتركة الصغيرة التي تربط كلا منهم إلى شوارعها ومدارسها وملاعبها وحاناتها ..

ـ أنا املكه !

ـ ليست المشكلة أنا وأنت . المشكلة اننا نفقد وجهنا حينما تتسخ مدينتنا ، ونموت إذا تشوهت أو انتحرت ، اننا ندافع عن أطفالنا حينما ندافع عن قيمنا .. اننا ندافع عن أنانيتنا حينما نفتديها ..

ـ أنا املكه !

ـ أجل ، تملكينه يا عنيدة ... حازم تملكينه !

ثم شفتاه تنفثان الشهوة المخمورة . مهارته في الصمت أيضاً لا تجارى !)

ويقول أخي : هل سمعت مـا كنت أقوله ؟ مادو ... هل سمعتني ؟

ـ اجل ! اعني ، لا .. لا يا سليم آسفة !

ـ لا ألومك . باختصار ، ليس عليك اعـداد أي شيء للمساء . صاحبة البيت موجودة هنا ، تنظف الشقة . وسوف تتقاضى « باوند » كامل عن الساعة ، فاصرفيها بأسرع وقت . وأرجو ألا تتخلفي مساء كعادتك !

(دوماً أتخلف مساء ...

أكره أن أراهم ينهارون واحـداً بعد الآخر : سليم ونادر وعزيز وزهير و .. يتجاهلون المعنى الحقيقي لما يدور .

يشاركون بعضهم البعض في التستر على سقوطهم المفجع .

أكره المشهد المعتاد : أخي جالس إلى منضدته ونادر يشاركه حل مسألة ما ...

يقولان انهما انتهيا من الدراسة .

سليم يمسك بأوراقه ، عبثاً يحاول نظم قصيدته : « لأننا بلا مدينة .. »

منذ وصل إلى هنا وتشاغل بالدرس وهو يكتب ويمزق .. صديقته ماغي ، فأر طيب أزرق العينين ، يتشاغل عنه بقرض كتب « ايان فلمنغ » ..

هي تقرأ ، وتشرب .

وهو يشرب ، ويكتب ، ويمزق ، ويمزق ...

ثم يفتح طرداً وصل مؤخراً فيه كل ما يصدر من نتاج يزوده به صديق وفي باستمرار ، وينكب على أوراقه من جديد ، يخط فصلاً جديداً في مؤلفه الذي يعده للطبع ، والذي ينقد فيه كل ما يصدر من نتاج .

يكتب النقد بخنجره ، كأنه ينتقم من قصيدته الحبيسة في جوفه . قصيدته التي يعرف كما أعرف . انها رائعة ...

يحزنه ان الجراء تبقى ، واللبوة تجهض !

ونادر مع شقراء جديدة ، المهم أن يكون شعرها طويلاً ، لأنه يقضي بقية السهرة يشرب . ويضفر شعرها كما تفعل الفلاحات في قريته !

وانا ... يا انا ...)

الراديو . فليتكلم أي صوت خارجي ويخمد ذلك الشريط المؤلم في داخلي . الراديو ، أمد يدي وأدير زره . رسالة أبي ما تزال بين أصابعي منذ الليلة الماضية ، لحظة استلمتها قبل أن أهرب بها إلى فراشي . الراديو ، لا أدري ماذا يقول . ولكن الرسالة تقول : « العيد ... »

ما العيد في دورنا وشوارعنا ؟

الليلة ، من يسقط في طنجرة السكر المغلي ؟

(أمام باب المطبخ ، وقف أبي واخوتي يضحكون بشدة ويشيرون إلي ، بينما سارعت أمي لانتشالي من طنجرة السكر المغلي (القطر) . وزادت ضحكاتهم وهم يشاهدون آثار زحفي على مفرش الحلويات الكبير ، حيث التهمت في طريقي فوقه نفقاً من الحلوى ، وكنت أقطر بالسكر دون أن أتخلى عن « البالون » في إحدى يدي ، لما اختطفني أبي منها وهو يقول : هاتها ، دعني آكلها !

ثم رفعني عالياً . وخلف الخص الخشبي استطعت أن أرى السوق المسقوفة ، مزينة ومضيئة تعج بالحركة والاصوات .

وكان صوت المؤذن يتدفق خلال مربعاتها الصغيرة مع دفء منعش ، وقهقهات اخوتي الذين لم يكونوا قد قتلوا بعد تملأ المكان لم يبق منهم إلا سليم ، ولم يعد يضحك !)

صاحبة الدار تقرع الباب . تدخل . وجهها أنف كبير أحمر ، وعينان بلا أهداب . قلت لها : بعد دقائق أغادر الغرفة وتستطيعين تنظيفها .

العيد ؟

عويل الريح . العاصفة . وصوت الراديو الرتيب الاخبار . قضية هامة . يجب أن أنصت . يقول : فيتنام ... مؤتمر ... حرب ... سلام ... يقول أشياء كثيرة عبثاً تشدني . صوته ازيز آلة رتيبة . فجأة أجدني انصت باهتمام .. المذيع قد عطس !

مسكين ! غداً تطالب الصحف باستئصال رئتيه ، وينكب جيش من العلماء الشقر ، يجرون ابحاثهم لاستئصال رئات المذيعين ؛

هذا بينما رئات الملايين من الغرباء تمتلىء دماً وشوقاً إلى رائحة بلدهم ، دون أن يفعلوا شيئاً من أجلهم ، وهم يدرون أو لا يدرون ، انهم بطريقة ما ساهموا في تمزيقها ...

إذا نجحت في المسابقة ، ورضوا باستخدامي كمذيعة في قسم الاذاعة العربية ، فسوف يكون علي أن أتعلم التنفس الغلصمي ، كالاسماك ، بلا رئة حتى لا أعطس . وسوف أقضي يومي في غرفة الاذاعة الزجاجية المملوءة بالماء ، كسمكة زينة في حوض معروض للبيع . وهذا أفضل مصير يمكن أن أحلم به لو بقيت هنا ...

أجل ! سأصبح واحدة منهم . آلة ، ولكن بلا وطن ...

وكل صباح ، كل صباح ، سأبدأ من هنا ...

وخلف النافذة التي كشفت ستائرها الرمادية ، أرى الفراغ الرمادي تأكله العاصفة ، والسماء رصيف ، وصف طويل من الناس انتظم بانتظار « الباص » كدمى واجهات المحلات العامة ، بلا حركة تذمر أو تأفف أو احتجاج .

من هنا سوف أبدأ إذا بقيت .

إذا بقيت سأصبح مثلهم . هل يمكن هذا ؟

الصق وجهي بزجاج النافذة مذعورة ، فقد رأيتني واقفة في الصف الطويل ، اقضم « سندويشة » أحملها باحدى يدي ، وفي اليد الأخرى أمسك باحدى الصحف اقرأ « صفحة الجرائم » وفي وجهي استسلام الأموات ولامبالاتها كوجه جارنا الطبيب النازي الذي لا يعرف أحداً من أية مدينة جاء منذ أعـوام بعيدة ...

أصرخ : « لا » . اضرب زجاج النافذة بيدي المغلقة على

الرسالة ، فينكسر . ولكن المنظر لا يتبدل .. الفراغ رمادي ، والسماء رصيف . و « الباص » قد وصل ، وهم يتدفقون إلى جوفه ، وأنا قد غبت في جوفه ...

دفء الدم الذي يتدفق من يدي لذيذ .

صاحبة الدار تطل برأسها من الباب . تتمتم وهي تتأمل لوح الزجاج المحطم : عشر شلنات !

كحردون ، تسحب رأسها بسرعة واسمعها تغمغم : اولئك الشرقيون ...

أنا فرحة بالنزف . فرحة بنبض الدم الذي يتفجر . كنت أظنني صرت جافة جافة مقددة حتى لو مددوني تحت أحد قطارات الانفاق لما حدث شيء ، ولظللت ورقة جريدة ، عتيقة جافة ممحوّة السطور !

. . .

أحمل يدي . أمضي بها إلى جارنا الطبيب ، ذي الوجه الميت المحنط بصلابته الصخرية ، والتي لا تعبر عن عمره ، أو أية خلجة في نفسه ، ان كانت له نفس .

أغادر بابنا نحوه ، لا يدهشني أن أرى صاحبة الدار تمسح آثار الدم عن الارض بقرف ، ثم تنظر إلى ساعتها !

. . .

الرسالة لا تزال داخل يدي . ويدي لا تزال تنزف . بها أقرع الباب . تسقط الرسالة إلى الأرض والدم يغطيها . انفجر ضاحكة . اضحك بشراهة . يا له من مشهد « رومانتيكي » تافه ، يصلح لفيلم فاشل ، ولجمهور مراهق : « الرسالة